يَعْجَبُ الربُّ مِنْ عَبْدِهِ

٤٢ ـ عن علي بن ربيعة قال:

رأيتُ علياً أُتِيَ بدابة ليركبَها، فلما وضع رِجْلَه في الرِّكَابِ قال: «بسْمِ اللَّهِ». فلَما اسْتوى عليها قال: «الحمدُ للَّهِ، سُبْحان الذي سَخَّر لنَا هَذَا ومَا كُنَّا له مُقرنين، وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلِبُونَ». ثُمَّ حَمِد اللَّهَ ثَلاثاً وَكبَّرَ ثَلاثاً. ثُمَّ قالَ: «سُبْحانكَ، لَا إلهَ إلَّا أنتَ، قَدْ ظلمتُ نفسي فاغْفِرْ لي».

ثم ضحك فقُلْتُ: ضحكتَ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ فعل مِثْلَ ما فعلتُ ثم ضحك، فقلتُ: مِمَّ ضحِكْتَ يَا رسُولَ اللَّهِ؟

قال: يَعْجَبُ الربُّ من عَبْدِهِ إذَا قَال: ربِّ اغفِر لِي، وَيَقُولُ: «عَلِمَ عَبْدي أنَّه لَا يغفِرُ الذنُوبَ غَيْري»[1].

يقول الحق سبحانه تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فهذه أنعام نستخدمها للتنقُّل أو للزينة، ولا نأكل لحومها، فهي للركوب والمنفعة مع الزينة، ذلك أن الناس تتزيَّن بما تركب، تماماً كما يفخر أبناء عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة.

ونَسَق الآية يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب، فكُلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه، فالخيل للسادة والفرسان والأغنياء، ومَنْ هم أقلّ ما يركبون البغال، ومَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البغال، فيمكنه أن يشتري لنفسه حماراً.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٠٢)، والترمذي في سننه (٣٤٤٦)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٧)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد يملك إنسان الثلاثة ركائب، وقد يملك آخر اثنتين منها، وقد يملك ثالثٌ ركوبةً واحدة، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجر، ولو ركوبة من أيِّ نوع.

وقد جعل الحق سبحانه البغال في الوسط؛ لأنها ليست جنساً، بل تأتي من جنسين مختلفين، وينبّهنا الحق سبحانه في آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطاف، بل هناك ما هو أكثر، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وقد جعل الحق سبحانه البُرَاق خادماً لسيدنا رسول اللَّه ﷺ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام، وإذا كانت مثل تلك المعجزات قد حدثتْ لأنبياء فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثيرَ من عربات تجرُّها الجياد إلى سيارات وقطارات وطائرات.

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتني الخيل ويُربِّيها ويُروِّضها ويُجريها لجمال منظرها، وإذا كانت تلك الوسائل من المواصلات التي كانت تحمل عنّا الأثقال، وتلك المخترعات التي هدانا اللَّه إياها، فما بالنا بالمواصلات في الآخرة؟

لا بُدَّ أن هناك وسائلَ تناسب في رفاهيتها ما في الآخرة من متاع غير موجود في الدنيا.

فلو أن القرآن ذكر الخيل والبغال والحمير فقط من وسائل المواصلات ولم يَقُلْ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ثم ظهرت وسائل مواصلات غير الخيل والبغال والحمير مثل العربة الحنطور، ثم السيارة، ثم الطائرة والصاروخ... إلخ.

لو لم يَقُلْ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، لتشكَّكَ الناس عند ظهور وسائل مواصلات جديدة لم تكُنْ معروفة عند نزول القرآن الكريم، ولكن الحق سبحانه الذي يعلم ما سيحدث في الكون حتى قيام الساعة ذكر ذلك في كتابه قبل أنْ توجد أيٌّ من هذه الأشياء.

وقال الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا

تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

والفُلْك هي السفن والمراكب في البحار والأنهار، والأنعام التي نركبها كالخيل والحمير والجمال، كلها نركبها وتحمل أثقالنا إلى مكان لا يمكن أنْ نصله إلا بِشقّ الأنفس.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ [النحل: ٧].

ويقول في آية أخرى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

والحَمُولة هي التي تحمل، والذي تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولة»؛ ولذلك نقول عن السيارة التي تنقل «حمولة كذا طن» والإبل نحمل عليها الرحال وكل متطلباتنا.

فهي تعطينا درجة من الراحة، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنَّا هذه المشقات، وتُبلغنا غاياتنا بدون تعب، فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية، وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل.

وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات، فصارت عندنا السيارات الكبيرة التي تحمل أطناناً من المواد والمتاع، ولكن لم نلتفت إلى ما تُحدِثه من عوادم تُسبِّب فساد الهواء، وتُلوّثه على عكس فضلات الحمار أو البغل، التي تفيد في خصوبة الأرض.

إذن: فصناعة السيارات إنْ لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما، فهي اختراع بلا حكمة، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود وبذلك نستفيد من سرعة السيارات، وقدرتها على حَمْل البضائع ونتخلّص مما تُسبِّبه من ضرر، وهكذا نعرف أن الحكمة هي: وَضْع الشيء في موضعه المفيد فائدةً دائمة لا يأتي من بعدها ضرر.

ومن نعمة اللَّه سبحانه أنْ خلق لك هذه الأنعام لتركبها في سفرك بعد أنْ كنت تمشي على رِجْلَيْك وتحمل الأثقال، أصبحت هذه الأنعام تحملك وتحمل أثقالك، فكان يجب أن تشكر اللَّه على هذه النعمة.

والأنعام خلق اللّه لها أربع قوائم، حتى تكون ثابتة، وكذلك السفن تحتاج إلى أربعة أشياء: السفينة نفسها، والبحر، والهواء الذي يسيّرها، والطاقة التي تُحرّكها.

فأنت ترى هذه النعم كلها عندما تركب السفينة، فكان عليك أنْ تذكر نعمة اللّه وتشكره عليها، وحين نذكر نعمة اللّه علينا نُجيبه بقولنا: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

النبي ﷺ علّمنا أن نقول هذا عندما نركب أيّة دابة تسير على الأرض، أو سفينة تسير في البحر، كما علّمنا الحق سبحانه أنْ نذكره عند مباشرة أيِّ عمل جديد.

ولذلك؛ علّمنا شيئاً آخر بالنسبة لركوب السفن، وهو أن نقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

فجريانها إنما يتم بمشيئة اللّه تعالى وأنهم يركبون فيها باسمه سبحانه، ولذلك يُقال: « **كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر**[(١)] »[(٢)]؛ لأنك حين تُقبل على فعل شيء، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة، فإنْ كان الفعل عضلياً فهو يحتاج لقوة، وإنْ كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر ورَويّة وأَنَاةٍ، وإنْ كان فِعْلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة، وإنْ كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة، ومن أجل أن تحصل على القوة، فقد تقول: « باسم اللّه القوي القادر»، ولكي تحصل على عِلْم تقول: « باسم العليم»، وتريد الغِنى فتقول: « باسم الغنيّ».

وحين تحتاج إلى الحِلْم تقول: « باسم الحليم»، وعندما تحتاج إلى الشجاعة تقول: « باسم القهار».

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة، والذي يُغْني عن كل ذلك أنْ

---

(١) البتر: استئصال الشيء قطعاً. وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر. والبتر أصله القطع الحسي والقطع المعنوي من الخير (لسان العرب ـ مادة: بتر، القاموس القويم ١/ ٥٤).

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه: « كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر اللّه عز وجل فهو أبتر ـ أو قال: ـ أقطع».

تنادي ربك وتتبَرّك باسم واجد الوجود، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، ففيه تنطوي كُلُّ صفات الكمال والجلال.

وإياك أنْ تتهيَّب أو تستحي، بل ادخل على كُلِّ أمر باسم اللَّه، حتى لو كنتَ عاصياً؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم.

وهناك فَرْق بين «بسم اللَّه» الذي نستعين به على ما لا قدرةَ لنا عليه؛ لأن اللَّه هو الذي سخَّر كُلَّ ما في هذا الكون وجعله يخدمنا، وبين «الحمد للَّه»، فإنَّ لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد اللَّه على ما فعل لنا.

والتسبيح والتحميد والتكبير عند الركوب هو أمر وجَّهنا رسول اللَّه ﷺ له؛ لنقوم للَّه سبحانه بحقِّ الشُّكْر والثناء عليه سبحانه، فلا نكفر نعمته علينا، ولا نجحد فضله أنْ سخَّر لنا هذه الأنعام والدواب، ومَا لا نعلمه من وسائل انتقال يمُنُّ اللَّه علينا بها بتقدُّم العلم وحركة الابتكار والاختراع.

فنقول: «**الحمد للَّه، سبحان الذي سخر لنا هذا**».

«سبحان اللَّه» تنزيه لذاته سبحانه أنْ يكون له شريك، لا في الذات، ولا في الأفعال، ولا في الصفات، والحمد للَّه كذلك، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا: الحمد للَّه، فسبحان اللَّه تنزيه، والحمد للَّه شُكر على العطاء.

والحَمْد يشترك معه في المعنى العام: الثناء والشكر والمدح، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربتْ في المعنى العام، فلكُلٍّ منها معناه الخاص، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَم عليه بنعمة خاصة به، كأنْ يُسدي لك إنسانٌ جميلاً لك وحدك، فتشكره عليه.

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك، فَرُقعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر، أما المدح فقد تمدح مَا لا يعطيك شيئاً، كأنْ تمدح مثلاً الشيء الجميل لمجرد أنه أعجبك.

فقول: «الحمد للَّه» بالألف واللام الدالة على الحصر، فالمراد الحمد المطلق الكامل للَّه، الحمد المستوعب لكلِّ شيء، حتى إن حمدك لأيّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو ـ إذا سَلْسَلْتَه ـ حَمْدٌ للَّه تعالى الذي أعان هذا الإنسان على أنْ يُحسن إليك.

فالجميل جاء من حركته، وحركته موهوبة له من خالقه، والنعمة التي أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى، وهكذا إذا سلسلْتَ الحمد لأيِّ إنسان في الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى.

وكلمة «الحمد للَّه» هذه هي الصيغة التي علّمنا اللَّه أنْ نحمده بها، وإلّا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلفَ الخَلْق في الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء، وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيِيّ والأميّ، فتحمّل اللَّه عنَّا جميعاً هذه الصيغة، وجعلها متساوية للجميع، الكلُّ يقولها «الحمد للَّه»، البليغ يقولها، والعَيِيُّ يقولها، والأميّ يقولها.

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد اللَّه ويُثني عليه: «سبحانك، لا نُحصِي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

فإنْ أردنا أنْ نُحصي الثناء عليك فلن نستطيع؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت، ولا يُحصيه غيرك، ولا نملك إلا أنْ نقول ما علَّمتنا من حمدك: الحمد للَّه.

إذن: فاستواءُ الناس جميعاً في «الحمد للَّه» نعمة كبرى في ذاتها تستحق الحمد، فنقول: الحمد للَّه على ما علَّمنا من الحمد للَّه بالحمد للَّه، وهكذا، لو تتبعتَ الحمد لوجدته سلسلةً لا تنتهي، حَمْد على حمد على حمد على حمد، فيظلّ اللَّه محموداً دائماً، ويظلّ العبد حامداً إلى مَا لا نهاية.

وتسبيح اللَّه تنزيهه تنزيهاً مُطْلقاً، أنْ يكونَ له شبيه أو مثيل فيما خلق، فلا ذاتٌ كذاته، ولا صفاتٌ كصفاته، ولا في أفعاله، فليس في أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى.

فإنْ قيل لك: اللَّه موجود وأنت موجود، فنزّه اللَّه أن يكون وجوده

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٦/٥٨، ١٢٠)، ومسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها قالت: فقدت رسول اللَّه ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

كوجودك؛ لأن وجودك عن عدم، وليس ذاتياً فيك، ووجوده سبحانه ليس عن عدم، وهو ذاتيٌّ فيه سبحانه.

فكلمة «سبحان» تنزيه وتعجُّب من قدرة اللَّه.

ولو تأملنا كلمة «سبحان» نجدها في الأشياء التي ضاقت فيها العقول، وتحيَّرتْ في إدراكها، وفي الأشياء العجيبة، مثل قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

فالأزواج أي: الزوجين الذكر والأنثى، ومنهما يتم التكاثر في النبات، وفي الإنسان، وقد فسَّر لنا العلم الحديث قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء، وأن فيهما السالب والموجب الذي يساوي الذكر والأنثى.

ومنها قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها، ويرى كيف يحلُّ الظلام محلَّ الضياء، أو الضياء محلّ الظلام، لا يملك أمام هذه الآية إلا أنْ يقولَ: سبحان اللَّه.

ومنها قولنا: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**» عند ركوب الدابة.

فهذه كلها أمور عجيبة، لا يقدر عليها إلا اللَّه، وحتى لا يغترّ الإنسان بالإمكانات التي أعطاها اللَّه له عند ركوب هذه الأشياء المسخَّرة له، ذكَّره اللَّه بالرجوع، فعلَّمه أن يقول في تكملة الدعاء:

«**وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون**».

أيّ: لا تغترّ بأن أشياء حملتْك وأراحتْك، واشكر الذي سخّرها لك، واعلم أن عودتك ومرجعك إليه، فربما غرقت السفينة، أو مرضت الأنعام، وعجزت عن السير.

وكلُّ شيء من وسائل الانتقال هذه جعل اللَّه له آفة، ففي السفن قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

فلم يحمدوا اللَّه على هذه النعمة، ولكن فرحوا واغتروا، فجاءها الريح العاصف، وعند الخطر يتذكّر الإنسان ربّه.

وربنا هو الذي علَّم الإنسان صناعة السفن، فسيدنا نوح عندما أخذ يصنع السفينة كان الناس يسخرون منه، وعلَّمه اللَّه كيف يصنعها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧].

فالفكرة الأولى لصناعة السفن منه سبحانه، والأنعام من مخلوقاته، والأنعام أقوى من الإنسان، فالحمار أقوى، والفرس أقوى، والجمل أقوى، ومع ذلك ذلَّلها اللَّه لنا وسخَّرها.

ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢].

فلو أن اللَّه لم يُذللها لنا ما استطعنا أنْ نقربها أو نستفيد منها، ولذلك نقول: إن الولد الصغير كان يقود الجمل الضخم، ويُمسك بزمامه، والجمل يسير وراءه طائعاً مستسلماً، وكذلك باقي الأنعام، وهذا موجود في الريف حتى اليوم.

بينما تجد أضعف شيء وهو البرغوث يُقلق منامك ويحرمك من الراحة، ولا تستطيع أنْ تُمسكه ولا أنْ تنتقمَ منه؛ لأنه غير مُسخَّر لك، كذلك أصغر ثعبان يمكن أنْ يثير الفزع بين الناس؛ لأنه غير مُسخَّر للإنسان.

فلا بُدَّ أنْ يتذكر الإنسان نعمة اللَّه عليه في أنه لا يقدر على الشيء، ولكن اللَّه ذلَّله له وسخَّره لخدمته، وإذا أردْنَا أنْ نُدرِّب هذه الحيوانات ونُروِّضها لأداء أغراض معينة تستجيب وتتعلّم.

ومعنى: «وما كنا له مقرنين» أي: مُطيقين. أي: أننا لا نقدر عليه.

وإذا كنتَ قد قُلْت: «باسم اللَّه» قبل الركوب، ثم حمدْتَ اللَّه بعد أن استويتَ على ظهر الدابة راكباً، ثم سبَّحْتَ اللَّه تنزيهاً له وتعجباً من قدرة الحق سبحانه أنْ سخَّر لك هذا وهيَّأه لك، فعليك أنْ تُكبِّر اللَّه فتقول: «اللَّه أكبر».

فلا بُدَّ أن تكبِّر اللَّه وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار، فإنْ ناداك وأنت في أيّ عمل فقُلْ: اللَّه أكبر من عملي، وإنْ ناداك وأنت في حضرة عظيم، فقُلْ اللَّه أكبر من أيّ عظيم، كبِّر تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر، وعلى كُلِّ نَهْي.

فاللَّه تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيِّ شيء، فاجعل أمره ونَهْيه فوق كل شيء، وكأن الحق سبحانه يُوجِّهنا أنْ نجعل توجهنا للَّه من بداية ما نضع أقدامنا على وسيلة انتقالنا، بالبسملة والحمد والتسبيح والتكبير، ثم توحيده والاعتراف والإقرار بأننا قد ظلمنا أنفسنا، فلنطلب المغفرة من اللَّه؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا اللَّه.

ولذلك يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق جعلهم أهل أغيار؛ لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته، بل إنه سبحانه شرع التوبة للمذنب حمايةً للمجتمع من استشراء شَرِّه، فلو خرج كُلُّ مَنْ ارتكب ذنباً من رحمة اللَّه فسوف يعاني المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان، ويصبح كل عمله نقمةً مُسْتطيرة الشر على المجتمع.

إذن: فالتوبة من اللَّه، مشروعيةً وقبولاً، إنما هي حماية للبشر من شراسة مَنْ يصنع أول ذنب، وهكذا جاءت التوبة لتحمي الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة.

ولذلك يعجَب رَبُّ العزة سبحانه من عبده هذا الذي يعلم أن اللَّه وحده هو الذي يغفر الذنوب، ومع ذلك يُذنب؛ ولذلك يقول رَبُّ العزة في حديثه القدسي:

«علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري».

فمَنْ يظلم نفسه بالذنوب هو مَنْ نسي اللَّه، فالمذنب الذي يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه لا يكون اللَّهُ على باله، لأنه لم يَرَ اللَّه، ولم يَرَ جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلاً أمامه، ولو تصوَّر هذا لامتنع عن فِعْل الذنب.

فلا يجوز للإنسان أنْ يتجاوز عن أخطائه ويقول: هذه صغيرة وتلك صغيرة؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

هذه الآية هي إحدى ثماني آيات قال عنها ابن عباس: «**في سورة النساء ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربت**»(١).

وهي خَيْر مِمَّا طلعتْ عليه الشمس؛ لأنها تحمي من حُمْق الاختيار الذي وُجِد في الإنسان حين لا يلتزم بمنهج اللَّه، ولو أن الإنسان كان مُسيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

فهذه الآيات طمأنتْ الإنسان على أنه إنْ حَمُق اختياره في شيء، فاللَّه يريد أنْ يُبصِّره، واللَّه يريد أنْ يتوب عليه، واللَّه يريد أنْ يُخفِّف عنه، واللَّه يريد إنِ اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها.

ولكن بشرط أنْ لا يكونَ عندنا إصرار على الصغائر، لماذا؟ لأنك إنْ قدَّرْت ذلك فقدِّر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر، فلا تقُلْ: سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها، وأيضاً تكون كالمستهزئ بربِّه.

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال: «ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

بَيْتُ الحَمْد

٤٣ ـ قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إذَا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ اللَّهُ لملائكتِهِ: قَبضتُم وَلَدَ عَبدِي؟ فَيقُولُونَ: نَعم.

فيقولُ ربُّ العِزَّةِ: قبضتُم ثمرةَ فُؤادِهِ؟

فَيقُولونَ: نَعم.

فَيقُولُ: ماذَا قَالَ عَبْدي؟

فَيقولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرجَع.

فَيقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعبْدِي بَيْتاً في الجنةِ، وسَمُّوه بيتَ الحَمْدِ»[1].

يقول الحق سبحانه:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

إن الحق سبحانه يختبر مدى صِدْق الإنسان حين يُعلن الإيمان، إنه سبحانه يختبرهم بالمحن والنِّعم، ويُميِّز أهل الصِّدْق في الإيمان عن الكاذبين في الإيمان.

فَمنْ صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صِدْقه ويقينه، ومَنْ لم يصبر فقد دَلَّ بعمله هذا على أنه كان يعبد اللَّه على حَرْف، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به ورضي، وإنْ أصابه شَرٌّ وفتنة انقلب على وجهه ونكصَ على عَقبيْه فخسر الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٠٢١)، وابن حبان (موارد الظمآن ـ ٧٢٦) من حديث أبي موسى رضي اللَّه عنه، قال الترمذي: «حديث حسن غريب». وقد أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤١٥) عنه أيضاً بلفظ «قال اللَّه تعالى: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد».

وذلك مِصْداقاً لقوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالابتلاءات لها حكمة ومَغْزى ما دامت جاءت من ربٍّ حكيم، ولم تأْتِ من بشر، فهي قَدَر جرى عليك، ولم تجرّه أنت على نفسك، فلا بُدَّ له من حكمة، فالذي يعبد اللَّه لا بُدَّ أنْ يعبده على أساس أنه إلٰه حكيم يُبتلى بالخير، ويُبتلَى بالشرّ، وما دام عَلِم هذا فسيظلّ إيمانه قوياً.

وهناك مَنْ يعبد اللَّه على حَرْف، والحَرْف هو طرف الشيء، كمثل واحد يدخل على جماعة من الناس، ويجد المكان ممتلئاً بالحاضرين فيجلس على الحَرْف، والحرْف عادةً لا يكون فيه تمكُّن، فالذي يجلس عليه لا يأخذ راحته في الجلوس.

فكذلك الذي يعبد اللَّه على حَرْف يكون غير مُتمكِّن من إيمانه، فإذا أصابه خير يفرح ويسعد، ويقول: هذا الإيمان جميل وحُلْو وفيه بركة.

وإنْ حدث له ابتلاء أو فتنة تجده يسبُّ ويسخط، فهذا عبادته غير مُتمكِّنة باليقين الذي يصدر عن الإنسان المؤمن بإلٰه حكيم يجري على عبده الخير له.

أما الآخر فيعبد اللَّه على حَرْف، فإنْ أتاه خير فرح واطمأن، ومضى في إيمانه، وإنْ حدث له ابتلاء أو شَرٌّ انقلب على وجهه، فمَنْ لم يصبر وانقلب وضعه وتغيَّرتْ أحواله إلى الأسوأ يكون قد خسر الدنيا والآخرة؛ لأن عبادته لم تَعُدْ تنفعه.

بل إنه يخسر خُسْراناً مبيناً، وهو الخُسْران الذي لا يُعوَّض، فالذي يخسر الدنيا قد يكسب الآخرة بالصبر والرضا، ولكن الذي يخسر الدنيا والآخرة فهذا هو الخُسْران المبين الذي يُطوِّق صاحبه، ولا يمكن تعويضه.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له، وليس هذا إلا للمؤمن**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩)، والدارمي في سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب =

فكُلُّ ما كتبه اللَّه هو لصالح المؤمنين به، إما أَدباً، وإمّا ثواباً، وإما ارتقاءً في الحياة، ولذلك فهو خير، ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه اللَّه عليها حُسْن الجزاء، ويستقبل هذا المؤمن قضاءَ اللَّه تعالى بنفسٍ راضية؛ لأن ما يصيبه قد كتبه اللَّه عليه، وسوف يوافيه بما هو خير منه، وهناك بعض المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

إذن: فالمؤمن كلُّ أمره خَيْر، وإياك أن تنظر إلى مَنْ أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مُصَابٌ حقاً؛ لأن المصاب حقّاً هو مَنْ حُرِم من الثواب.

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين: صبرٍ على ما يؤلم، وشكرٍ على ما يُرضي، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن يكون مكتمل الإيمان.

هنا يُقبِل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان؛ لأنه يثق في أن الحق سبحانه لا يُضيع أَجْرَ مؤمن؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن، ويشكر على النِّعَم.

إذن: عليك أن تدخل على الإيمان وأنت مؤمن بحكمة ربك في كل ما يُجريه، سواء كان نعيماً أو بُؤْساً، فإنْ كان نعيماً فأنت سعيد به شاكر لربك عليه، وإنْ كان بُؤْساً علمت أن للَّه حكمة فيه.

فصِدْق إيمانك مُتوقِّف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك، فإنْ آمنت وأسلمتَ وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك، نقول: أنت غير صادق، ولكن إذا وُجدَتْ صفات الإيمان في إنسان نقول له: لقد صدقْتَ في إيمانك؛ لأن حركة حياتك انسجمتْ مع واقعك الإيماني، وما أكثرَ الناس الذين يقولون ولا يفعلون وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

= الرومي. وأخرج أحمد في مسنده (٥/ ٢٤) من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال ﷺ: «عجباً للمؤمن، لا يقضي اللَّه له شيئاً إلا كان خيراً له».

هناك أُنَاسٌ كثيرون عندما يعطيهم اللَّه نعمة يقولون: «ربنا أكرمنا»، وعندما يسلبهم النعمة يقولون: «ربنا أهاننا».

فأنت مخطئ يا مَنْ اعتبرتَ النعمة إكراماً من اللَّه، وأنت مخطئ أيضاً يا مَنْ اعتبرتَ سَلْب النعمة إهانة من اللَّه، إن النعمة لا تكون إكراماً من اللَّه إلا إذا وفَّقكَ اللَّه في حُسْن التَّصرُّف في هذه النعمة، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك اللَّه في أداء حَقِّ النعمة، وحَقُّ النعمة في كل حال يكون بشُكْر المنعم، وعدم الانشغال بها عَمَّنْ رزقك إياها.

إذن: مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختباراً، وكذلك إن ابتلاك اللَّه بسلب النعمة ليس هذا للإهانة، ولكنه للاختبار أيضاً.

فالخير بلاء، كما أن الشر بلاء، وحين تستخدم الخير في خدمة منهج اللَّه تعالى ولا تطغى به، وحين تصبر على الشر، ولا تتمرد على قَدَر اللَّه، فهذا كلُّه اختبار من اللَّه عز وجل.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وكلامُ اللَّه حَقٌّ، يقول سبحانه في قرآنه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فتكون لنا البُشْرى؛ لأننا صبرنا على كُلِّ هذه المنغِّصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقْص الأنفس، وصبر على نقْص الثمرات.

فالمهم أن ينجح المؤمن في كُلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياة صُلْباً، ويواجه الحياة قوياً، ويعلم أن الحياة مَعْبَر ولا يشغله المعبر عن الغاية، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها، وأي أمر يصيب الإنسان إمَّا أنْ يكون له دَخْلٌ فيه، وعند ذلك لا يصحّ أنْ يجزع؛ لأنه

هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإمّا أنْ تكون مصيبة لا دَخْلَ له بها وحدثتْ له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أنْ يبحث عن سببها: أَعَدْلاً أم ظُلْماً؟

إنْ كانت عَدْلاً فهي قد جبرتْ الذنب، وإن كانت ظُلْماً فسوف يقتصُّ اللَّه له مِمَّنْ ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كِلْتَا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتي له منها خَيْر، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقياً.

هل لي على اللَّه حق؟ أنا مملوك للَّه وليس لي حق عنده، فما يُجرِيه عليَّ فهو يُجريه في مُلْكه هو.

ومَنْ لا يُعجبه ذلك فليتأبَّ على أيِّ مصيبة، ويقول لها: «لا تصيبيني» ولن تستطيع دَرْء أيِّ مصيبة ـ وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعِزَّنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول: «إنا للَّه وإنا إليه راجعون».

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى اللَّه ونقبل ما حدث لنا، فنحن مملوكون للَّه، ونحن راجعون إليه، وحتى إنْ كان في مصائب الدنيا ظُلْم لنا وقع علينا من إنسان فسوف نأخذ ثوابَ مَا ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى اللَّه.

إذن: فنحن للَّه ابتداء بالملكية، ونحن للَّه نهاية في المرجع، وهو سبحانه ملك القوسيْن، الابتداء والانتهاء؛ ولذلك علَّمنا رسول اللَّه ﷺ عند أيِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ يسترجع، أيْ أن يقول: «إنَّا للَّه وإنا إليه راجعون».

وزادنا أيضاً أن نقول: «**اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها**»، إنك إذا ما قلتها عند أيِّ مصيبة تصيبك فلا بُدَّ أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها، وحتى إنْ نسي الإنسان أنْ يقول ذلك عند وقوع المصيبة، ثم تذكَّرها وقالها فَلَهُ جزاؤها، كأنه قالها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي اللَّه عنها، حين مات أبو سلمة زوجها ـ

وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعتْ عليه أم سلمة، فقيل لها قولي ما علَّمنا رسول اللَّه ﷺ، قالت: وما علّمكم؟ قالوا: « **إنا للَّه وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها** »، فقالت ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عِدَّتها يذهب إليها النبي خاطباً، فقيل لها: « **أَوُجِد خير من أبي سلمة أم لم يوجد؟ قالت: ما كنت لأتسامى ـ أي أتوقع ـ مثل هذا الموقف** »[(١)].

إذنْ: كُلُّ مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها: « **إنا للَّه وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها** ».

وما هذا إلا لليقين في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وهكذا تردّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدَبِّر أمره، فقد يحدث لي شيء أكرهه، ولكنه في حقيقة الأمر يكون لصالحي، فهناك أحداث تتم للتأديب والتهذيب والتربية، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يُربّي إلا مَنْ يحب، أما مَنْ لا يحب فهو لا يهتم بتربيته، فما بالنا بحبِّ الخالق لنا؟

وصدق رسول اللَّه ﷺ إذ يقول: « **إذا أحب اللَّه قوماً ابتلاهم** »[(٢)].

ويقول ﷺ أيضاً: « **أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة** »[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢١) من حديث أم سلمة رضي اللَّه عنها.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ولفظه: «إن اللَّه عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع» وأخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه في سننه (٤٠٣١) عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه، ولفظه: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢)، والترمذي في سننه (٢٣٩٨)، وابن ماجه في سننه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه، وقال: «حسن صحيح».

فالمصائب تأتي للمؤمن لإفادته، لأن المؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر اللَّه به عنه ذنباً، وإما أن يرفعه درجة به.

يقول ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه اللَّه بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة**»(١).

ولذلك يقال: إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب.

فإنِ استقبل المؤمنُ المصيبةَ بالرضا، وعلم أن الذي أجراها عليه حكيم، ولا يجري عليه إلا ما يعلم الخير وإنْ لم يعلمه، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف، أما غير المؤمن فهو يتمرَّد على القدر، وبعدم إيمانه يُحرم من الثواب.

وفي حديث آخر يقول رسول اللَّه ﷺ: «**المصاب مَنْ حُرِم الثواب**».

فالذي يُحْرم من ثواب اللَّه هو المصاب فعلاً، أما الإنسان الذي تحدث له مصيبة ويصبر عليها وينال على صبره ثواب اللَّه، فهذا ليس مصاباً.

والمصيبة قد تكون بسبب مرض أو وفاة شخص عزيز، أو أي شيء يحدث لك دون تدخُّل من أحد، في هذه الحالة يكون الصبر عليها أسهل من الصبر على مصيبة حدثتْ بسبب غريم لك، ضرب ابنك أو أصابك بمكروه، أو تسبَّب في إيقاع الضرر بك.

في هذه الحالة يتأجَّج في النفس سُعَار الانتقام، ويكون الصبر صَعْباً، ويحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان راسخ.

والولد من النعم التي يُنعِم اللَّه بها على الإنسان، فكلُّ إنسان يرجو من اللَّه أنْ يكونَ له أبناء ذكوراً وإناثاً، فيشعر بالسرور والسعادة.

فالإنسان يحب الولَد ويسعى إليه؛ لأنه ابْنُ دنياه، وهو يعلم أنه ميت ميت، فيحب أنْ يكونَ له امتداد في الدنيا وذكر من بعده، فالإنسان يتمسّح في

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٢) ومسلم في صحيحه (٢٥٧٢)، والترمذي في سننه (٩٦٥) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

الدنيا حتى بعد موته، وهو لا يدري أنَّ ذِكْر الإنسان لا يأتي بعده، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح.

والإنسان تجده يحب البنين من الأولاد أكثر؛ ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فنجد الحق سبحانه يضيف «البنين» إلى مجال الشهوات، ويقصد بها الذُّكْران، ولم يقُلْ البنات، لماذا؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعِزْوة كما يقولون، ولا يأتي منهم العار، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار، والمحبوب لدى الرجل في الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة ويُنادون بها، سواء كان رجلاً أو امرأة إنْ لم يرزقه اللَّه بولد ذكر، فإنه ـ أو إنها ـ تريد ولداً ذكراً.

والمال والبنون هما الشغل الشاغل لكل الناس، فكل واحد يريد أن يكون غنياً وعنده أولاد، وتجده مشغولاً ومهموماً بسبب ذلك، ولذلك يقول تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الكهف: ٤٦].

فالمال والبنون من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، أي ليسا من ضروريات الحياة، فهو مجرد شكل وزخرف؛ لأن المؤمن الراضي بما قُسِم له يعيش حياته سعيداً بدون مال، وبدون أولاد؛ لأن الإنسان قد يشقى بماله، أو يشقى بولده؛ لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزق هذا المال أو هذا الولد.

والمال والبنون ليس كلاهما شراً للإنسان، بل قد يكونان خيراً له، فالمال إذا جمعتَه من حلال وأنفقتَهُ في الخير يكون مَقْرُبة لك عند اللَّه.

وكذلك الأولاد إذا ربَّيْتَهُم تربية حسنة ونشَّأتَهم على طاعة اللَّه والعمل الصالح في المجتمع، فهذا خير لك في الدنيا والآخرة.

ولهذا المعنى قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من**

(١) الخيل المسوّمة: أي المرسلة للرعي أو المعلَّمة بعلامات (القاموس القويم ١/ ٣٣٧).

ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له »[1].

فهذا الإنسان يُعطي عمره عُمْقاً وامتداداً، حتى بعد موته، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهي عمره مهما كانت رُقعته واسعة، فهو يزيد من عمله الصالح، ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته.

ولذلك طلب زكريا عليه السلام الولد، فقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

إنه هنا يطلب الولد، ولكن لا بُدَّ لنا أنْ نلاحظَ ما يلي:

هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عِزْوة، أو ذِكْراً؟ لا، إنه يطلب الذرية الطيبة، ولذلك قال في آية أخرى: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

والمراد بالميراث هنا: ميراث العلم والنبوة والمُلْك، وحَمْل منهج اللَّه إلى الناس، فزكريا عليه السلام طلب الابن لتثبيت منهج اللَّه في الأرض، لقد طلبه لمهام كبيرة.

إنه يضع كلَّ أمله في اللَّه، وكأنه يقول: إنك يا ربّ من فور أنْ تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك. لماذا؟ لأنك يا رب تعلم صِدْق نيتي في أني أريد الغلام. لا لشيء من أمور كقرّة العين، والذِّكْر والعِزّ وغيرها، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لي في حَمْل منهجك في الأرض.

وجاءتْه البُشْرى وهو يقف بين يدي اللَّه مُصَلِّياً، قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

لقد نادته الملائكة في أورع لقاءاته مع ربه.

وإبراهيم عليه السلام أيضاً دعا ربه فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٢)، ومسلم في صحيحه (١٦٣١)، والترمذي في سننه (١٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

فقد عَزَّ عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بَعْث منهج اللَّه في الأرض، فقال: يا ربِّ نحن سنموت، فأدعوك أنْ تقرَّ عيني بغلام يأتي بعدي ليقوم بهذا العمل، فحين يتمنى رسل اللَّه من اللَّه خِلْفة، إياكم أنْ تظنُّوا أنها مثلما نتمنى نحن، فنحن نريدها ذكرى وعِزْوة، أما النبي فيريد من ابنه أن يكون نموذجاً إيمانياً، يرثه في حَمْل الفضائل وتطبيق منهج اللَّه.

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

والحليم هو الذي لا يستفزه غضب، ويتحمّل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه؛ لأنه يعلم أنه إنْ كان في لجاج مع الغير، عليه ألّا يزيد فيه؛ لأن مَنِ امتنع عن اللجاج في الباطل بنى اللَّه له بيتاً في الجنة، فالحليم يقدر على نفسه؛ لأنه يعتقد أنه خالقه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ (١) قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج للصبر على قضاء اللَّه، فاللَّه لا يرفع قضاء في الخلق إلا أنْ يرضى خَلْق اللَّه بما أنزل اللَّه، أما الذي لا يقبل المصائب فهو مَنْ تستمر معه المصائب، أما الذي يريد أن يرفع اللَّه عنه القضاء فليقبل القضاء.

فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذَبح ابنه الوحيد، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء اللَّه شديدَ القسوة، فقد كان على إبراهيم أنْ يذبَح ابنه بنفسه، وهذا ارتقاء في الابتلاء.

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمٰن عُذْراً ليهرب من ابتلاء اللَّه له، ولم يَقُلْ: إنها مجرد رؤيا، وليست وَحْياً ولكنها حَقٌّ، وقد جاءه الأمر بأهوَنِ تكليف وهو الرؤيا، وبأشقِّ تكليف وهو ذَبْح الابن.

---

(١) أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم، بمعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل (قاله ابن كثير في تفسيره ٤/ ١٤).

ونرى عظمة النبوة في استقبال أوامر الحق، ويُلهمه اللَّه أنْ يُشرِك ابنَه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

لقد بلغ إسماعيل سِنَّ السعي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء اللَّه، ولم ينشغل بالحقد على أبيه، ولم يقاوم، ولم يدخل في معركة، بل قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢].

لقد أخذ الاثنان أمر اللَّه بقبول ورضا؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ[1] لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء اللَّه، وأسلم كُلٌّ منهما للآمر، أسلم إبراهيمُ كفاعل، وأسلم إسماعيل كمنفعل، وعَلِم اللَّه صِدْقهما في استقبال أمر اللَّه.

وهذا الابتلاء جاء إبراهيم في آخر حياته، فلما كبر إبراهيم ووهبه اللَّه الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه، إنه ابتلاء شديد قاسٍ، لكن إبراهيم يعلم أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يطلب من خَلْقه إلا أنْ يستسلموا لقضائه.

ولذلك، إذا رأيتَ إنساناً طال عليه قضاء ربه في أيِّ شيء، في مرض، في مصيبة، في مال، أو غير ذلك، فاعلم أنه لم يرْضَ بما وقع له، ولو أنه رَضِي لانتهى القضاء، فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به، ولا يستطيع أحد أن يلوي يد خالقه، إذن: فالناس هم الذين يُطيلون أَمَدَ القضاء والبلاء على أنفسهم.

إن طريق الخلاص من أي نائبة من النوائب أنْ يرضى المؤمن بها، فتنتهي ومَنْ تحدث له مصيبة بأنْ يموت ولد له، ويظل فاتحاً لباب الحزن في البيت، وتبكي الأم كلما رأتْ مَنْ في مثل سِنِّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً، وإنْ أرادوا أن يزيل اللَّه عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا.

وليعلم كل مؤمن أن مَا أُخذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه،

---

(١) تلَّه: ألقاه على وجهه على الأرض. وقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]. أي: ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض. (القاموس القويم ١/ ١٠١).

والمأخوذ الذي قبضه اللَّه إليه وتوفّاه مُعوّض بجزاء خير مما يترك في الدنيا.

ولذلك يُقال: المصاب ليس مَنْ وقعتْ عليه مصيبة وفارقه الأحباب، بل المصاب مَنْ حُرِم الثواب، فكأنه باع نكبته بثمن بَخْس.

قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام تُعلّمك أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من اللَّه، إياك أنْ تجزع، إياك أنْ تسخط، إياك أنْ تغضب، إياك أنْ تتمرد، بل احمد اللَّه سبحانه، واسترجع أي: قُلْ: إنّا للَّه وإنّا إليه راجعون.

ولذلك نقول في الدعاء: أحمدك على كل قضائك وجميع قدرك، حَمْد الرضا بحكمك، لليقين بحكمتك.

أي: لك حكمة يا ربِّ فيما أجريتَ عليَّ من أحداث، ولكني لا أراها.

فإنْ أردتَ رَفْع القضاء، فارْض به أولاً، وإذا لم يُرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضا من نفسك لم يكُنْ مقبولاً، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضجراً.

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجبره أحد، فالقضاء نافذ نافذ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ، وحين تُسلِّم للَّه وترضى بقضائه يرفعه عنك، أو يُبيِّن لك وَجْه الخير فيه.

إذن: عليك أنْ تحترم القدر وترضى به؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم، ولا يرفع قضاء اللَّه عن الخَلْق حتى يرضُوا به، وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء اللَّه، خاصة عند موت الطفل الصغير، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل، يقول أحدهم: إنه لم يتمتع بشبابه.

ونعجب من مثل هذه الجهالات: أيّ شباب؟ وأيّة متعة هذه؟ وقد فارق في صِغَره دنياً باطلة زائلة، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه؟

إنه في نعيم، لو عرفتَه لتمنيتَ أنْ تكونَ مكانه، ويكفي أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون، وليس لهم مسكن خاص في الجنة؛ لأنهم

طلقاء فيها، يمرحون كما يشاؤون، لذلك يُسمَّوْن: «دعاميص[١] الجنة[٢]».

لذلك، كان من الغباء إذا مات لدينَا طفل أو غلام صغير يشتد الحزن عليه، وننعي طفولته التي ضاعت، وشبابه الذي لم يتمتع به، ونحن لا ندري ما أُعِدَّ له من النعيم، لا ندري أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدَّد له مسكن في الجنة، لأنها جميعاً له، يجري فيها كما يشاء، ويجلس أيْن يحب، يجلس عند الأنبياء، وعند الصحابة، لا يعترضه أحد.

لذلك، نقول لمن فقد عزيزاً عليه، كالمرأة التي فقدت وحيدها مثلاً: إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند اللَّه، وإن كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة، فإنْ لطمْنا الخدود وشققنا الجيوب واعترضنا على قدر اللَّه فيه، فقد خسرنا به الدنيا والآخرة.

والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن، وهي بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ حسب قوة الإيمان.

ويصف الحق سبحانه هذا الابتلاء لإبراهيم عليه السلام أنه البلاء المبين، فيقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٦، ١٠٧].

فبعد أنْ رضي كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل، وسلَّما أمرهما للَّه تعالى، وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع اللَّه برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا البلاء وتكرُّمه بالفداء.

وهكذا لم يكُنْ جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام

---

(١) الدعاميص: جمع دعموص، وهو الدخّال في الأمور. أي: أنهم سياحون في الجنة دخّالون في منازلهم، لا يُمنعون من موضع. (لسان العرب ـ مادة: دعمص).

(٢) عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول اللَّه ﷺ بحديث تُطَيِّب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، صغارهم دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى حتى يُدخله اللَّه وأباه الجنة» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٥١٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى ـ عز وجل ـ البُشْرى بمزيد من العطاء، فيقول:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢].

أي: أنه لم يرزقه بولد ثانٍ فقط، بل بولد يكون نبياً وصالحاً، وتأتي زيادة أخرى في العطاء الرباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

هكذا يتجلَّى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذي يحفظ ذِكْره فقط، بل يعطيه الولد الذي يحفظ أمانة الدعوة أيضاً، وكلُّ ذلك نافلة من اللَّه.

أي: عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبي الأنبياء.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فكلنا نعيش برحمات اللَّه، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة اللَّه ويأخذ أسباب حياته برحمة اللَّه، والنِّعَم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة اللَّه، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة اللَّه، ويزيد اللَّه له بالبركة والاطمئنان، والاطمئنان نعمة كبرى، فَمَن يعِشْ في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من اللَّه عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء.

أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ

٤٤ ـ قَالَ رَبُّ العزة سبحانه:

أَنْفِقْ أُنْفِق عليك.

وقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلأى، لَا تَغِيضُها[١] نفقَةٌ، سَحاء[٢] الليل والنهار.

وقَالَ: أرأيتم مَا أنفقَ منذُ خَلَق السماءَ والأرضَ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ مَا في يَده، وكانَ عرشُه على الماءِ، وَبيدِه الميزانُ يخفِضُ ويرْفَعُ[٣].

يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ[٤] وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الذين آمنوا وانفعلوا بالإيمان، فاللَّه يُكلِّف مَنْ آمن به، لا مَنْ كفر، يخاطب الذين أصبحوا أَهْلاً لمخاطبة اللَّه لهم، فالإيمان باللَّه هو حيثية كُلِّ حُكْم، سواء فهمتَ الحكمة منه أو لم تفهمها، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك اللَّه به؛ وأنت لا تفهم له حكمة أشدّ في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته.

---

(١) لا تغيضها: لا تنقصها. وغاض الماء: نقص. وأعطاه غيضاً من فيض: أي: قليلاً من كثير. وغاض ثمن السلعة: نقص. (لسان العرب ـ مادة: غيض).

(٢) قال النووي في شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٨٤): «السح: الصب الدائم». وقال ابن منظور في (لسان العرب ـ مادة: سحح): «أي دائمة الصب والهطل بالعطاء، وقال في شرح هذا الحديث: «يمين اللَّه سحاء» واليمين هنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها، فجعلها كالعين الثرة لا يغيضها الاستقاء ولا ينقصها الامتياح، وخصَّ اليمين لأنها في الأكثر مظنة للعطاء على طريق المجاز والاتساع، والليل والنهار منصوبان على الظرف».

(٣) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٨١، ٧٤١٩)، ومسلم في صحيحه (٩٩٣) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢، ٣١٣، ٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٤) الخلة: الصداقة الخالصة المتينة التي تخللت القلب. (القاموس القويم ١/ ٢٠٨).

إن الحق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

أي: أنا لا أطلب منكم أنْ تُنفقوا عليَّ، ولكن أَنْفقوا من رزقي عليكم.

فالرزق يأتي من حركة الإنسان، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك في شيء أو مادة، هذه الحركة تأتي على ترتيب فكر، وهذا الفكر رتبه من خَلَقه، والجوارح التي تنفعل، واليد التي تتحرك، والرِّجْل التي تمشي خلقها اللَّه، والمادة التي تفعل بها مخلوقة للَّه. فأيُّ شيء للإنسان إذن؟

ومع ذلك، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول: إنه لي. بل أمنحه لك أيها الإنسان، ولكن أَعْطِني حقي فيه، وحقي لن آخذه لي، ولكن هو لأخيك المسكين.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧].

وإياك أن تقول: وما دَخْلي أنا بالمسكين؟ عليك أنْ تعلم أنَّ المسكنة عَرَض، والعَرَض من الممكن أنْ يلحق بك أنت، فلا تُقدِّر أنك مُعْطٍ دائماً، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطي.

الحق يقول لك: أَعْطِ المسكين وأنت غنيٌّ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس أنْ يعطوك وأنت فقير، فقدَّر حكم اللَّه ساعةً يُطلَب منك، ليحميك ساعة أن يُطلب لك، وبذلك تتوازن المسألة.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فإياكم أنْ تظنُّوا أنني أطلب منكم أنْ تُعطوا غيركم، لقد طلبتُ منكم أنْ تُنفِقوا لأزيدكم أنا في النفقة والعطاء.

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

فهو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر لينفذوه فوراً، ذلك أن المؤمن يجب أنْ يُنفِّذ كُلَّ أمر يأتيه من اللَّه.

والحق سبحانه يأمرنا في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سِرّاً وعلانية، وهكذا يُشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين؛ فالإنفاق سِرّاً كي لا يقع الإنسانُ فريسةَ المباهاة، والإنفاق عَلَناً كي يعطي غيره من القادرين أُسْوة حسنة، ولكي تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء اللَّه عليك من خير.

ولذلك أقول: اجعل الصدقة التطوعية سِرّاً، واجعلها كما قال النبي ﷺ: «**لا تعلم شمالك ما أنفقتْ يمينك**»(١).

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدي ما عليك من حقوق اللَّه، وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية، وعِظَة عملية، واجعلوا من أركان الإسلام عِظَة سلوكية.

ولكن لا بُدَّ أنْ ننفق مما نحب، ومن أفضل ما عندنا، لا من الخبيث منه، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ(٢) مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكَسْب الطيب الحلال، فلا تأتي بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير، فاللَّه طيب لا يقبل إلَّا طيباً، فالحق سبحانه يحذرنا من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أي: لا يصح ولا يليق أنْ نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب، ونعطي اللَّه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٣٩)، ومسلم في صحيحه (١٠٣١)، والبخاري في صحيحه (٢/ ١٤٣ ـ ١٢/ ١١٢ ـ فتح الباري) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه. وقد وقع في لفظ مسلم مخالفاً لكل روايات الحديث «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله».

(٢) لا تيمموا: لا تقصدوا خبيث المال ورديئه لتنفقوا منه في سبيل اللَّه. (القاموس القويم ٢/ ٣٧٢).

رديء الكسب وخبيثه؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أنْ يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفق منه أو ليأكله.

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ . . .﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أي: أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أنْ تأكلَ من الخبيث إلا إذا أغمضتَ عينيك، أو تَمَّ تنزيل سعره لك، فمثل هذا لو أُعْطِي لك لَمَا قبلتهُ إلا أنْ تُغمض عينيك، وتتسامح في أَخْذه، وكأنك لا تبصر عَيْبه لتأخذه، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أنْ تقبله لسواك.

ويعطينا الحق سبحانه لقطة أخرى في أدب الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

فمن الأدب الإيماني في الإنسان أن ينسى أنه أهدى، وينسى أنه أنفق، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير، أو تصدّقه عليه، وخاصة الصِّغار الذين لا يفهمون حكمة اللَّه في الأشياء.

فعندما يعرف ابني أنني أعطي لجاري كذا، ربما دَلَّ ابني ومَنَّ على ابن جاري، ربما أخذه غروره فعيَّره هو.

فإياك أنْ تُتبع النفقة مَنّاً أو أذىً؛ لأنك إن أتبعتها بالمنِّ، فسيكرهها المعْطَى الذي تصدقتَ بها عليه ويتولد عنده حِقْد وبُغْض؛ ولذلك حينما قالوا: «اتقِّ شَرَّ مَنْ أحسنتَ إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاءَ شَرِّ ذلك الإنسان بألَّا تُذكِّره بالإحسان، لأن ذلك يُولِّد عنده حِقْداً.

والحق سبحانه سيأتي بنتيجة النفقة بدون مَنٍّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن، إما بالبركة في الرزق، وإما بسَلْب المصارف عنه، فهم تصدَّقوا. وسيأتيهم الحق سبحانه بما يُفرحهم ويشرح صدورهم ويبهج قلوبهم، إما بسرعة الخُلْف عليهم، أو برضى النفس، أو برزق السَّلْب.

فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائماً أي: أن يقيس البشرُ الرزقَ بما يدخل لهم من مال، ولا يقيسون الأمر برزق السلب، ورزق السلب هو محطُّ البركة.

هَبْ أن إنساناً راتبه خمسون جنيهاً، وبعد ذلك يسلب اللَّه منه مصارف تطلب منه مائة جنيه، كأنْ يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة، فيرزق اللَّه قلب الرجل الاطمئنان، ويطلب من الأم أنْ تُعِدّ كوباً من الشاي للابن، ويعطيه قُرْصاً من الأسبرين، وتذهب الوعكة وتنتهي المسألة.

ورجل آخر يجد ولده مُتْعباً وحرارته مرتفعة، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم، فيقذف اللَّه في قلبه الرُّعْب، وتأتي الخيالات والأوهام عن المرض في ذِهْن الرجل، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات.

الرجل الأول أبرأ اللَّه ابنه بقرش، والثاني أبرأ اللَّه ابنه بجنيهات كثيرة، إن رزق الرجل الأول هو رِزْق السَّلْب، فكما يرزق اللَّه بالإيجاب فاللَّه يرزق بالسلب. أي: يسلب المصرف، ويدفع البلاء.

واللَّه فَضْله واسع، وعطاؤه لا حدودَ له، ولذلك يقول رب العزة سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فالإنفاق في سبيل اللَّه يردُّه اللَّه مضاعفاً، وما دام اللَّه يضاعفه فهو يزيد، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك؛ لأنك أعطيتَهُ لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذي يقدر على إعطاء كل واحد حَسْب ما يريد هو سبحانه، إنه يعطي على قَدْر نية العبد وقَدْر إنفاقه.

وهذه الآية تعالج قضية الشُّح في النفس الإنسانية، فقد يكون عند الإنسان شيء زائد، وتشحُّ به نفسه ويبخل، فيخاف أنْ ينفق منه فينقص هذا الشيء.

وهنا تقول لك قضية الإيمان: أنفق، لأنه سبحانه سيزيدك، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها، أنت تضع الحبة الواحدة، فهل تعطيك حبة واحدة؟ لا، إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان، وكل عود فيه سنبلة، وهي مشتملة على حبوب كثيرة، فإذا كانت الأرض وهي

مخلوقة للّه تضاعف لك ما تعطيه، أفَلا يضاعف العطاء لك الذي خلقها؟

وإذا كان بعض من خَلْق اللّه يضاعف لك، فما بالك باللّه جَلَّ وعلا؟

إن الأرض الصمَّاء بعناصرها تعطيك، أئذا ما أخذتَ كيلة القمح من مخزنك لتبذرها في الأرض أيُقال: إنك أنقصتَ مخزنك بمقدار كيلة القمح؟ لا؛ لأنك ستزرع بها، وأنت تنتظر كم ستأتي من حبوب، وهذه أرض صَمَّاء مخلوقة للّه، فإذا كان المخلوق للّه قد استطاع أنْ يعطيك بالحبة سبعمائة، ألَا يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعافَ ذلك؟

إنه كثير العطاء، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع، فالمنفقون أجرهم عند اللّه أضعاف مضاعفة، وهو أجر ليس بقدرات البشر، ولكنه بقدرة اللّه سبحانه.

يقول الحق سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالحق سبحانه عنده من السَّعَة ما يعطي الكل، وسبحانه واسع عليم، والحديث القدسي يقول: يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[1].

إذن: فخزائن اللّه مَلأَى، لا تنفد، وسعة الحق مطلقة، وهو سبحانه يرزق بغير حساب؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له: لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق؟

يرزق بغير حساب؛ لأنه لا يحكمه قانون، وإنما يعطي بطلاقة القدرة، فخزائنه لا تنفد.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧، ١٥٤)، والترمذي في سننه (٢٤٩٥)، وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي اللّه عنه.

إن قدرته ـ جل وعلا ـ تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شيء من عنده، فهو عطاء مَنْ لا ينفد ما عنده، فهو يعطيك ويعطي الآخرين، ولا ينقص مما عنده شيء.

والمؤمن يعلم أن عطاء اللَّه لواحد لا يمنع أنْ يعطي الآخر، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس في البحر.

obeikandl.com

أَذِّنْ وَعَلَيَّ البَلَاغُ

٤٥ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال[١]:

«لَمَّا فَرَغَ إبْراهِيمُ مِنْ بناءِ البَيْتِ قَالَ: رَبِّ قَدْ فرِغْتُ. فقال: أَذِّنْ في النَّاسِ بالحجِّ. قال: رَبِّ ومَا يبلُغ صَوْتي؟

قال: أَذِّنْ وعَلَيَّ البَلَاغُ.

قال: رَبِّ كيفَ أقُولُ؟

قال: يَأيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عليكُم الحجُّ. حَجُّ البيتِ العَتِيق.

فَسَمِعَه مِنْ بيت السَّماء والأرْض، أَلَا تَرى أنهُمْ يجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الأرْضِ يُلَبُّونَ؟».

يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلَةً بالبيت الحرام، وكان رَفْع قواعد البيت الحرام على يده، بعد أنْ طُمِر وسُتِر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام، فحين يأتي الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا بُدَّ أن تأتي أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم، وهي حادثة بناء البيت الحرام.

فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة؛ لذلك كان من اللازم حين تأتي كلمة «ناس» أن يكون هناك «بيت» و«آدم» من الناس، ووالد كل الناس، وكان له بيت وُضِع له.

وحين يُقَال: إن البيت قد تَمَّ بناؤه قبل آدم فإننا نقول: نعم، لأن آدم من الناس، والله يقول: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٨٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي في تلخيصه.

فلماذا نحرم آدم من أنْ يكون له بيت عند اللَّه؟ إذن: فالبيت موجود من قبل آدم.

وبعض الناس يظنُّون أن إبراهيم هو الذي بنى البيت، ولأصحاب هذا الظنِّ نقول: لنفهم القرآن معاً، إن مثل هذا القول يناقض القرآن؛ لأن القرآن قد قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قَبْله أناس سابقون له، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند اللَّه التي وضعها اللَّه لمن بعد إبراهيم، فلا بُدَّ أن اللَّه قد جعل بيته لهم، والنص القرآني: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦]، يؤكد ذلك، وما دام قد جاء الفعل مبنياً للمفعول فواضعه غير الناس، فـ«وُضِع» هو فعل مبني على ما لم يُسَمَّ فاعله، فمَنِ الذي وضعه؟ هل هم الملائكة؟

قد يصح ذلك، وهو أنْ يكون الملائكة قد تلقَّوْا الأمر من اللَّه بمزاولة هذا البناء، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وهذا يعني أن البيت هُدىً للملائكة؛ لأنهم عَالَم، وهذا يعني أن البيت قد وضعه اللَّه من قبل ذلك.

إن أحداً لا يقدر أن يجعل الكون على قَدْر العقل البشري، إن على العقل البشري أن يكون في رِكَاب الكون، وإياك أن تجعل الكون في ركاب عقلك.

فالحق سبحانه لم يترك الخَلْق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجُّون إليه، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أنْ تقوم الساعة.

أما مسألة أن إبراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة أولاً، فهذا عدم فَهْم للنص القرآني القائل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فما هو الرفع؟ إنه إيجاد البُعْد الثالث وهو الارتفاع، فالطول والعرض

موجودان. إذن: فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاعَ البيت، وهكذا نستنتج أن الذي كان مطموساً هو القاعدة والارتفاع، ومع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان. أما البناء فهو الذي يُحدِّد «المكين» وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه.

ونحن عندما نصلي في الدور الثالث في الحرم، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة، ولو حفرنا نفقاً تحت الأرض بألف متر، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة، وهكذا نعرف أن جَوَّ الكعبة كعبة.

إذن: فعمل إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان، ولنقرأ بالفَهْم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان. و«هاجر» تعرف أن مُكوِّنات الحياة هي المياه والهواء والقوت، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه.

لذلك، قالت هاجر سائلةً إبراهيمَ عليه السلام: كيف تتركنا هنا؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من اللَّه؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام: إنه توجيه من اللَّه. لذلك قالت: «واللَّه لا يُضيّعنا أبداً»(١).

لم تقلق هاجر؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره اللَّه، وهذا هو الإيمان في قمته، ولو لم يكُن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأيّ قلب لأم تترك أبَ الطفل يذهب بعيداً عنها، وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء، فهي لا تؤمن بإبراهيم، ولكنها تؤمن برب إبراهيم.

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت، وأن هذا البيت مُحرَّم، وعندما نقرأ عن رَفْع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام

---

(١) ذلك أن هاجر قالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٧٠٧).

لم يرفع قواعد البيت بمفرده، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمٰن في إقامة قواعد البيت الحرام، وهذا يدلُّنا على أن إسماعيل نشأ طفلاً في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم، هكذا نتيقَّن أن البيت المحرَّم كان موجوداً من قَبْل إبراهيم عليه السلام.

ومعنى رَفْع القواعد أي: إيجاد البُعْد الثالث، وهو الارتفاع؛ لأن البيت الحرام له طول، وهذا هو البُعْد الأول، وله عرض وهو البُعْد الثاني، وبهما تتحدَّد المساحة. أما الارتفاع فبضربه في البُعْدين الآخرين يعطينا الحجم، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البُعْد الثالث الذي يبرز الحجم.

ولكن، هل يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت الآن؟ أم أنه رُفِع وانتهى؟ طبعاً هو رُفِع وانتهى، ولكن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت.

واللَّه يريد من المؤمنين أنْ يتصوَّروا عملية الرفْع، فلم يكُنْ إبراهيم يملك سُلَّماً حتى يرفعه ويقف فوقه، ولم يكُنْ يملك «سقالة»، ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أنْ يتحايل ويأتي بالحجر.

إن اللَّه يريد مِنَّا ألَّا ننسى هذه العملية، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر، ولا بُدَّ أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أنْ يحملاه إلى مكان البناء، ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رَفْع القواعد من البيت، ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان فهما سعيدان.

وكلُّ ما يطلبانه من اللَّه هو أن يتقبَّل منهما، وهما لا يريدان إلا الثواب.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أنْ فرغا من رَفْع القواعد من البيت قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وكأنهما يقولان: يا ربّ، أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت، وقد فعلْنا ما أمرتنا به، وليس معنى ذلك أننا اكتفيْنا بتكليفك لنا؛ لأننا نريد أن نذوقَ حلاوة التكليف منك مرات ومرات، فاجعلنا نُسلّم كل أمورنا إليك.

إن الإنسان لا يمكن أنْ ينتهي من تكليف ليطلب تكليفاً غيره، إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف، ووجد فيه استمتاعاً، ولا يجد الإنسان استمتاعاً في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه، كلما عمل شيئاً استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد.

ولم يكتفيَا بذلك، بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما، فيقولان: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ليتصل أمدُ منهج اللَّه في الأرض، ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة.

ثم يقولان: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: بيِّن لنا يا رب ما تريده مِنّا، بيِّن كيف نعبدك؟ وكيف نتقرَّب إليك؟ والمناسك هي الأمور التي يريد اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن نعبده بها.

وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨]، يُرينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه؛ لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيراً للنفس، وخَيْراً للذرية، ونعيماً في الآخرة.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

لقد طلبَا من اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ التوبة والرحمة لذريتهما، واللَّه يحب التوبة من عباده، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره، وقد أضلَّه في فلاة[1]، ومن رحمة اللَّه سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «للَّه أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

دعا إبراهيم عليه السلام اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ليُتِمَّ نعمته على ذريته، ويزيد رحمته على عباده، بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلِّغهم مَنهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

سُمِّيَتْ الكعبةُ بيتاً؛ لأنها المكان الذي يستريح إليه كل خَلْق اللَّه، وهو مثابة للناس؛ لأن العبد يذوق حلاوة وجوده في بيت ربه، فلا يشغل ذهنه غير ذكر اللَّه وكلامه وقرآنه وصلاته، فلو نظرت إلى الكعبة سيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن، ولا تتذكر أولادك ولا شؤون دنياك، ولو ظلَّتْ جاذبية بيت اللَّه في قلوب الناس مستمرة لتركوا كُلَّ شؤون دنياهم ليبقوا بجوار البيت.

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاجِّ وقلبه؛ لأن الحجيج في بيت ربهم كلما كَرَبهم شيء، أو هَمَّهُمْ أمر توجهوا إلى ربهم وهم في بيته، فيذهب عنهم الهَمُّ والكرب.

وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام حينما قال:

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فذكر الأفئدة ولم يذكر الأجسام، وتهوي. أي: يُلْقون أنفسهم إلى البيت، ومن الخير أنْ تتركَ الناس يثُوبُون إلى بيت اللَّه؛ ليمحو اللَّه سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة.

فعلاقة الفؤاد والأفئدة بالحجيج علاقة قوية؛ لأن الهُويَّ في الحجيج هُويُّ قلوب، لا جيوب، وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أنْ يحظى بأداء تلك الفريضة.

وكلمة « تهوي» بكسر الواو، تدلُّ على السقوط من حالق، أي: من مكان مرتفع شاهق، وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها؛ ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلِّق به ـ تشتاق روحه إلى الحج.

وعلينا أنْ نُفرِّق بين « يَهْوَى» أي: يحب الذهاب، « ويهوي» بكسر الواو، أي: يذهب بالاندفاع، فالإنسان إنْ سقط من مكان عَالٍ لا يستطيع أن يقول: سأتوقف عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أنْ يُمسك نفسه.

وهذا دليل على أن الهُويَّ ليس من صَنْعة الجسم، ولكنه من صنعة الأفئدة، والأفئدة بيد اللَّه سبحانه، هو الذي جعلها تهوي.

ومن هنا كان الأمر لإبراهيم عليه السلام برَفْع القواعد من البيت الحرام، وتطهير البيت وإعداده للطائفين به والقائمين والركَّع والسُّجود، قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

والمراد: طَهِّر البيت من كل ما يُشعِر بالشرك، فهذه هي البداية الصحيحة لإقامة بيت اللَّه، فالتطهير يعني الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك وإخلاص العبادة للَّه وحده لا شريك له، وطهارة حِسِّية مما أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً.

ولذلك يقول تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، دليل على أن البيت زالتْ معالمه تماماً، وأصبح مثل سائر الأرض فذُبِحت فيه الذبائح وأُلقِيتْ المخلَّفات، فأمر اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُطهر إبراهيم وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس، ويجعله مكاناً لثلاث طوائف:

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ والطائف هو الذي يطوف، وهي مأخوذة من الطواف، وهو الدوران حول الشيء.

﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ هم: المقيمون.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ هم: المصلُّون.

فتطهير البيت للطواف به، والإقامة، والصلاة فيه، وهو مُطهَّر أيضاً لأنه سيكون قِبْلة للمسلمين، لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة.

من هنا جاء الأمر لإبراهيم عليه السلام بالتأذين في الناس بالحج، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

أمر اللَّه نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت وطهَّره للطائفين والقائمين والركَّع السُّجود أنْ يُؤذِّن في الناس بالحج، لماذا؟ لأن البيت بيت اللَّه، والخَلْق جميعاً خَلْق اللَّه، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمر به، أو يعيش إلى جواره؟

أراد الحق سبحانه أنْ يشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم، وإن كانت المساجد كلها بيوتاً للَّه، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت اللَّه باختيار اللَّه، لذلك جعله قِبْلة لبيوته التي اختارها الخلق.

ومعنى: ﴿وَأَذِّن﴾ [الحج: ٢٧]، الأذان: العلم، وأول وسائل العلم السماع بالأُذن، ومن الأذن أُخِذ الأذان، أي: الإعلام.

وحينما أمر اللَّه إبراهيم عليه السلام بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم وولده إسماعيل وزوجته هاجر، فلمن يُؤذِّن؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة ووَادٍ غير مسكون؟

فناداه ربه: يا إبراهيم، عليك الأذان وعلينا البلاغ، فمهمتك أن ترفع صوتك بالأذان، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس في كل الزمان وفي كل المكان، وسيسمعه البشر جميعاً وهم في عالم الذرِّ، وفي أصلاب آبائهم بقدرة اللَّه تعالى.

يعني: أَدِّ ما عليك، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك. فأذَّن إبراهيم في الناس بالحج، ووصل النداء إلى البشر جميعاً، وإلى أنْ تقوم الساعة.

والحق سبحانه يعطي لنا مثال هذا في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكان ذلك في غزوة بدر، حيث استنجد رسول اللَّه ﷺ بربه واستغاث

ودعا اللَّه ورفع يديه، فقال: «**يا ربِّ، إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً، فقال له جبريل: خُذْ قبضة من التراب فارْمِ بها في وجوههم، فأخذ ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فَما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومَنْخريْه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا مدبرين**»[(١)].

ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرّة تراب في عيني الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شيء. فقوْل الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

أي: أنك يا رسول اللَّه، ما أرسلت بالرَّمْية الواحدة ـ حفنة التراب ـ إلى عيون كل الأعداء؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد، ولكنك «إذ رميت» أي: أدَّيْتَ نصيحة جبريل لك، أما الإيصال إلى عيون العدو، فهذا من فِعْل اللَّه القوي القادر.

فما عليك يا إبراهيم إلا أن تؤدِّي ما عليك، فتؤذِّن في الناس بالحج، وعلينا نحن إيصال هذا النداء إلى كل نَسَمة خلقها اللَّه.

ثم يقول تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل كما يظنُّ البعض ـ إنما جَمْعاً لراجل، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه، والأرجل مخلوقة لتحمل بني الإنسان: الواقف منهم، وتقوم بتحريك المتحرّك منهم. فإنْ كان الإنسان واقفاً حملته رِجْلاه، وإنْ كان ماشياً فإن رِجْلَيْه تتحركان.

والضامر: الفرَس أو البعير المهزول من طول السفر.

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي: ﴿يَأْتُوكَ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٣) كتاب الجهاد، من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللَّهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

ولم يذكر رمي التراب في وجوه المشركين، ولكن قد أورد ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٥) هذا الأثر عن ابن عباس. باللفظ الذي ذكره الشيخ الشعراوي رحمه اللَّه هنا.

[الحج: ٢٧]، فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً، يأتون جميعاً رجالاً أو ركباناً من كل طريق بعيد.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

علينا أن نتنبه إلى أن الله قال في كل تكليف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ . . .﴾ [البقرة: ١٧٨]، ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح، بأن الحج لله «على الناس»، وليس لمن أسلموا فقط.

ورسول الله ﷺ قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أنْ يحجُّوا البيت الحرام، فامتنعوا عن الحج، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد ﷺ لما عرض رسول الله ﷺ على اليهود والنصارى أنْ يحجُّوا ليكون ذلك جَمْعاً لهم على أنْ يتجه الخَلْق جميعاً إلى بيت الله، ويعبدوا إلهاً واحداً، هو ربُّ هذا البيت، ولكنهم امتنعوا عن الحج.

لذلك يقول رسول الله ﷺ فيمن لم يحجّ بدون مرض حابس، أو سلطان جائر، أو فقر وعَوزٍ[1]: «**مَنْ ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أنْ يموت، إنْ شاء يهودياً، وإنْ شاء نصرانياً، وذلك أن الله تعالى يقول:**

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]».

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقوْل الحق: ﴿وَمَن كَفَرَ . . .﴾ [آل عمران: ٩٧]، فهل يقع مَنْ لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر؟

هنا يقف العلماء وقفةً. العلماء يقولون: نعم، إنه يدخل في الكفر، لماذا؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان: كفر بالله، أو كفر بنعمة الله.

ومثال ذلك قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٤) من حديث علي رضي الله عنه وقال: «رواه الترمذي والبيهقي من رواية الحارث عن علي، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

أو: هو الكفر، كأنْ يموت الإنسانُ يهودياً أو نصرانياً.

وهنا نقول: انتبه، لا تأخذ الحكم من زاوية، وتترك الزاوية الأخرى. إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فهل تعارضون في هذا التكليف؟ أو تؤمنون به، ولكن لا تُنفِّذونه؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فهل أنت مؤمن بها أو لا؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ «نعم»، ولكن الموقف يختلف من مؤمن إلى آخر، فنحن نجد مؤمناً يحرص على أداء الحكم من اللَّه، وهو الطائع، ونجد مؤمناً آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصياً.

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان:

ـ هناك مَنْ يكفر بحكم الحج، أي: مَنْ كفر في الاعتقاد بأن للَّه على الناس حج البيت، وهذا كافر حقاً.

ـ وهناك نوع آخر، وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة؛ لأن اللَّه أعطاه الاستطاعة من زاد، ومن راحلة، ومن أَمْن طريق، ومن قدرة على زاد يكفي مَنْ يعولهم إلى أَنْ يعود.

وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أنْ يسعى إلى الحج، لذلك قال بعض العارفين: لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثاً بمكة لَذهبَ إليه حَبْواً.

وللنظر إلى دِقَّة الأداء القرآني حين يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

إن اللَّه غني عن كل مخلوقاته، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن، وأدَّى ما عليه من تكليف، أنه عمل منفعة للَّه، إن اللَّه غني عن الذي أدّى، وعن الذي لم يُؤدِّ، إياك أنْ تظنَّ أن مَنْ أدَّى قد صنع للَّه معروفاً، أو قدَّم للَّه يداً.

والحج هو رحلة فرضها اللَّه مرة واحدة في العمر، يخرج إليها المسلم الذي يحيا في كل مكان مع نعمة المنعم، وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو

يتحلل من كُلِّ النعم التي تصنع له التمييز ليستوي مع كل خَلْق اللَّه.

وأوَّل سِمَة مُميزة للإنسان هي الملابس؛ لذلك يخلع المسلمون ملابسهم، ويرتدون لباساً مُوحّداً يتساوون فيه، وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم.

فالكل سواء في ملابس تكاد تكون واحدة، وكلهم شُعْث[1] غُبْر، وكلهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك»، هكذا تتم تصفية التفاوت في الإنسان بالإحرام، وتصبح العبودية مستطرقة في الجميع.

وتزول في الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج، وحول الكعبة يرى الخفير الوزير وهو يبكي، ويشعر الجميع أن الكل سواء.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

والحج هو القصد إلى مُعظَّم، وهو «حج البيت». أما العمرة فهي الحج الكبير، وزمانها شائع في كل السنة، والقاصدون للبيت يتوزعون على العالم كله.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده، وهو يعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة، فكان لا بد أن يبين القصد من الحج والعمرة، وأن المطلوب هو إتمامهما، ولا بد أن يكون القصد للَّه لا لشيء آخر، لا ليقال «الحاج فلان»، أو ليشتري سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[2] أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم[3] مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ[4] الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ...﴾ [البقرة: ١٩٨].

---

(١) تشعث: تلبَّد شعره واغبرَّ. واغبرَّ الشيء: علاه الغبار. والغُبْرة: لون الغبار. (لسان العرب ـ مادتا: شعث، غبر).

(٢) الجناح: الإثم والذنب. أي: ليس عليكم إثم في أن تتكسبوا في الحج.

(٣) أفاض الحجاج من عرفات: انصرفوا إلى مِنى بعد انقضاء الموقف كأنهم سيْل ينحدر ويسيل في سهولة ويُسر. (القاموس القويم ٢/ ٩٣).

(٤) المشعر: المعلَم الظاهر من أماكن الحج. (القاموس القويم ١/ ٣٥٠). =

فلا إثم عليكم ولا حرج أن تتكسبوا في الحج، وهو نسك عبادي، فلا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر؛ لأنك ستُيسِّر أمراً، لأننا إن منعناه، فمن الذي يقوم بأمر الحجيج؟

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغي الرزق والفضل، فكله من عند اللَّه، إياك أن تقول: قوة أسباب. وإياك أن تقول: ذكاء أو احتياط، فلا شيء من ذلك كله، لأن الرزق كله من اللَّه، هو فضل من اللَّه.

ولا ضرر عليك أن تبتغي الفضل من الرب سبحانه؛ لأنه هو الخالق وهو المربِّي ونحن مربوبون له، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من اللَّه.

وقد وصف رب العزة سبحانه بيته بأنه البيت العتيق، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩].

وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة، منها: القديم، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو إذن قديم، والقِدَم هنا صفة مدح؛ لأنها تعني الشيء الثمين الذي يُحافظ عليه، ويُهتم به.

كما نرى عند بعض أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها «العاديات» مثل: التحف وغيرها، وكلما مر عليها الزمن زادت قيمتها وغلا ثمنها.

والعتيق: الشيء الجميل الحسن. والعتيق: المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كل هذه المعاني، فهو قديم لأنه أول بيت وُضِع للناس، وهو غالٍ ونفيس ونادر، حيث نرى فيه ما لا نراه في غيره من آيات، ويكفي أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب، وهو بيت اللَّه الذي لا مثيل له.

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير؛ لأن اللَّه حفظه من اعتداء الجبابرة، ألا ترى قصة الفيل وما فعله اللَّه بأبرهة حين أراد هدمه؟

= قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وفي رواية: هذا الجبل وما حوله. (ذكره ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٤٢).

حتى الفيل الذي كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداء على بيت اللَّه، فتراجع عن البيت، وأخذ يتوجه أيَّ وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة.

ويُقال: إن رجلاً[١] تقدم إلى الفيل وقال في أذنه: ابْرُك محمود ـ اسم الفيل ـ وارجع راشداً فإنك ببلد اللَّه الحرام.

وقد عبّر الشاعر[٢] عن هذا الموقف، فقال:

حُبِسَ الفيلُ بالمغمَّس[٣] حتى ظَلَّ يَعْوي كأنه مَعْقُورُ[٤]

ثم أنزل اللَّه عليهم الطير الأبابيل التي ترميهم بالحجارة حتى الموت.

والحق سبحانه يحدثنا عن هذا البيت، فيقول:

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧].

فاللَّه جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كَدْحهم، لأنه بيت ربهم باختيار ربهم، لا باختيارهم، فكل مسجد هو بيت للَّه، ولكن باختيار خلق اللَّه، أما الكعبة فهي بيت اللَّه باختيار اللَّه، وهي قبلة لبيوت اللَّه التي قامت باختيار خلق اللَّه.

وقد أراد سبحانه أن تكون الكعبة هي البيت الحرام ليحفظ على الناس قِوَام حياتهم بالطعام والشراب واستيفاء النسل ودفع الأذى، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين؛ ولذلك يعطي الإيمان الحياة الراقية، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر.

وتبدأ الحياة بوجود الروح في المادة، فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة، والمؤمن هو من يرتقي بحياته فيعطي لها بالإيمان منافع، ويسلب عنها المصادر، فيأخذ السيادة، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته في الآخرة، فلا تنتهي منه الحياة أبداً.

---

(١) هو: نفيل بن حبيب الخثعمي، فيما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٥٢).
(٢) هو: أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي.
(٣) المغمَّس: موضع قريب من مكة.
(٤) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبي الصلت.

لقد جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، أي: قواماً لحياتهم، سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

فقد كانت قريش تستوطن حيث يوجد بيت اللَّه الحرام الذي يحج إليه كل عربي، يوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته.

إذن: فالبيت الحرام هو الذي أوجد لهم تلك المهابة، وإبراهيم عليه السلام كان يعيش في عقائد هؤلاء القوم؛ لأن كل أمور إبراهيم النُّسكية كانت في هذا المكان، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا في هذا المكان، ورفعه الكعبة كان في هذا المكان، والكعبة هي مركز السيادة لقريش، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل.

لقد أراد الحق سبحانه أن يوضح لقريش أن السيادة التي أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة لكنتم قبيلة من القبائل. لا مهابة لكم ولا سلطان ولا جاه.

obeikandl.com

القَرْض الحسَنُ

٤٦ ـ قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديث القُدْسي:

«**اسْتقْرضْتُ عَبْدِي، فَلَم يُقْرِضْني**»[(١)].

يقول الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

اللَّه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود، وما دام هو المستدعي إلى الوجود، فهو سبحانه مكلف بإطعامه، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه اللَّه للوجود فإنك تتودد إلى اللَّه بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به اللَّه.

وإذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال، فكيف يقول: أقرضني؟

نعم، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال، إن المال الذي لك هو هبة من اللَّه، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك: «**أعطه من عندك أو أقرضه من عندك**».

إنما يقول لك: «**أقرضني أنا، لأني أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني**»، فكأنك حين تعطيه تقرض اللَّه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ متفضل بالنعمة، ثم يسألك أن تقرضه هو.

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٠، ٥٠٦)، والحاكم في مستدركه (١/ ٤١٨)، (٢/ ٤٥٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، وتمامه: «يقول اللَّه عز وجل: استقرضت عبدي فلم يقرضني، وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وادهراه وأنا الدهر» قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم:

أقرضوني ما معكم من مال، وسأرده لكم عندما تمر الضائقة، كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال، إنما اقترضته منهم، كذلك يفعل اللَّه سبحانه وتعالى، وللَّه المثل الأعلى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي اللَّه عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول اللَّه ﷺ فرآها ممسكة بدرهم، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه، فسألها أبوها: ما تصنعين يا فاطمة؟ قالت: أجلو درهماً. قال: لماذا؟ قالت: لأني نويت أن أتصدق به. قال: وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه؟ قالت: لأني أعلم أنه يقع في يد اللَّه قبل أن يقع في يد المحتاج.

فساعة تسمع «يقرض اللَّه» فذلك أمر عظيم؛ لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض اللَّه، ولكن المسألة لا تكون واضحة، لماذا؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة، لكن عندما تنفق في سبيل اللَّه فليس هناك إنسان بعينه تعطيه، وإنما أنت تعطي المعنى العام في قضية التديُّن، وتعاملك فيها يكون مع اللَّه، كأنك تقرض اللَّه حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية، وهو سبحانه يعلم بما طبعت عليه النفوس.

والقرض في اللغة معناه: قَضْم الشيء بالناب، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله «يقرض»، إنه المقدِّر لصعوبتها، ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة.

وما هو القرض الحسن؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد اللَّه لا يكون القرض حسناً؟

أولاً إذا أقرضت عبداً من عباد اللَّه فكأنك أقرضت اللَّه، صحيح أنت تعطي الإنسان ما ييسر له الفرج في موقف متأزم، وصحيح أيضاً أنك في عملية الجهاد لا تعطي إنساناً بعينه وإنما تعطي اللَّه مباشرة.

وهو سبحانه يبلغنا أن من يقرض عبادي فكأنه أقرضني، كيف؟ لأن اللَّه هو الذي استدعى كل عبد له للوجود، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه في الدنيا، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض اللَّه المتكفل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى: ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، تدلنا على أن القرض لا يضيع؛ لأن القرض شيء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذي سيقترض منك، وأنه سيرد ما اقترضه، لكن ليس في صورة ما قدمت، وإنما في صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة.

إن الأصل محفوظ ومستثمر؛ ولذلك يقول: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس اللَّه ـ عز وجل ـ لا بمقاييسنا كبشر.

وهناك ملمح في هذه الآية:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فالمؤمنون في عبوديتهم للَّه عبيد لإله واحد، وقد أغنانا اللَّه بالعبودية له عن أن نذل لأناس آخرين، وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يُذِلَّ نفسه لأي مصدر من مصادر القوة، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوي، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغني، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

فساعة يقول الحق سبحانه: ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

فمعناها: إن أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى اللَّه؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه.

وعلى سبيل المثال، نجد أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض، بل قال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . . ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وهنا يرفع اللَّه عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة، العبد الفقير لا يقترض، ولكن القرض مطلوب للَّه، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء: إنك

تسأل الناس، ألا تعف ولا تسأل؟ فقال: أنا سألت الناس بأمر اللَّه، فالسائل يسأل باللَّه، أي: أنه يتخذ اللَّه شفيعاً ويسأل به.

وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له فهو يعتز بقوة هذا الكائن، وهي قوة ممنوحة له من اللَّه، وقد يستردها سبحانه منه، فما بالنا بالقوة اللانهائية للَّه، وكل قوة في الدنيا موهوبة من اللَّه، المال موهوب منه، والجاه موهوب منه، وكل عزة هي للَّه.

ولقد قرن الحق سبحانه بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونُصْرتهم، وبين إقراض اللَّه قرضاً حسناً.

فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (١) وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

والزكاة هي إخراج المال على نحو مخصوص، أما الصدقة فهي غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة، وهناك القرض، وهو المال الذي تتعلق به النفس؛ لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده؛ ولذلك قيل: إن القرض أحسن من الصدقة، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة، أما الذي تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج، ويسأل دون حاجة.

وأيضاً: لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدّق به ولا تتعلق به، أما الذي يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض، وكلما صبر عليه نال حسنة، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة، فهذا له أجر كبير، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة.

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن، حتى لا يكون فيه مَنٌّ أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار في القرض ربا، ولنا الأسوة الحسنة في أبي حنيفة، عندما كان يجلس في ظل بيت صاحب له، واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال، وجاء اليوم التالي للقرض، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت، فسأله صاحب البيت لماذا؟ أجاب أبو حنيفة: خفت أن يكون

(١) عزره: أعانه ونصره ووقّره مثل عزّره. قال تعالى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، أي: نصرتموهم وحميتموهم. (القاموس القويم ٢/ ١٨).

ذلك لوناً من الربا. فقال صاحب البيت: لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضني. فقال أبو حنيفة: كنت أقعد وأنت المتفضل عليَّ بظل بيتك، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه مَنٌّ أو أذى أو منفعة.

ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالحق يحمي المقترض من نفسه؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب، يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسد هذا الدَّيْن، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه، لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسى القرض، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أي أزمة، فيريد الحق أن يديم الأسباب التي تتداول فيها الحركة؛ ولذلك يقال في الأمثلة العامية: من يأخذ ويعطي يصير المال ماله، ويكون مال الدنيا كلها معه، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ . . . ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي ذلك حماية للنفس من الأغيار، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ . . . ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وهكذا، يحمي اللَّه الحركة الاقتصادية، ونجد رسول اللَّه ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دَيْن، فقال للصحابة: صَلُّوا على أخيكم لكنه لم يُصَلِّ على الميت[1].

---

(١) عن أبي قتادة أن النبي ﷺ أُتِيَ برجل ليصلي عليه، فقال النبي ﷺ: «صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً» قال أبو قتادة: هو عليَّ. فقال رسول اللَّه ﷺ: «بالوفاء؟» قال: بالوفاء. فصلّى عليه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي في سننه (١٠٦٩).
وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ كان يُؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّيْن فيقول: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: «صلوا على صاحبكم». فلما فتح اللَّه عليه الفتوح قام فقال: «أنا أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفِّي من المسلمين فترك ديناً عليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته» أخرجه الترمذي في سننه (١٠٧٠) وقال: حديث حسن صحيح.

وتساءل الناس: لماذا لم يُصَلِّ رسول اللَّه ﷺ على هذا الميت؟ وما ذنبه؟ كأن رسول اللَّه ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة، ولكنه لم يصل عليه حفزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى اللَّه عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه**»(١).

فما دام قد مات وهو مدين، وليس عنده ما يسد الدين، فربما كان لا ينوي رد الدين، وأن نفسه قد حدَّثته بألا يرد الدين.

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه، ثم لا يمر بذهن الذي أقرض أن فلاناً مدين، بل وقد تبلغ الحساسية بالذي قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن اللَّه قد قذف هذا الخاطر في نفس المقرض؛ لأن المقترض يريد أن يسدد القرض، أما إن تحرك قلب الدائن على المدين، وجلس يفكر في قيمة الدَّيْن، فليفهم أن عند الذي اقترض بعض ما يسدد به الدين. أي: أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه، ذلك أن اللَّه لا يحرج من يجدّ ويجتهد في السعي لسداد دينه.

والقرض من المال الذي لديْك يجعل المال يتناقص؛ لذلك فاللَّه يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض، وذلك مناسب لقوله تعالى: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ...﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فساعة تذهب إليه ويأخذ كل منا حقه بالحساب. أي: أن المال الذي تقرض منه ينقص في ظاهر الأمر، ولكن اللَّه سبحانه يزيده ويبسطه أضعافاً مضاعفة، وفي الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

إنه رِزْق بغير حساب من اللَّه، فقد يرزقك اللَّه على قَدْر سَعْيك، وربما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخاري في صحيحه (٢٣٨٧) عن أبي هريرة، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢٤١١) بلفظ: «من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه اللَّه».

أكثر، وهو يرزق بغير حساب؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له: لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق.

وهو سبحانه يرزق بغير حساب؛ لأن خزائنه لا تنفد. ويرزق بغير حساب؛ لأنه لا يحكمه قانون، وإنما يعطي بطلاقة القدرة، إنه ـ جَلَّ وعلا ـ يعطي للكافر حتى تتعجب أنت وتقول: يعطي الكافر ولا يعطي المؤمن، لماذا؟

إذا استطاع أحد أنْ يحاسبه فليسأله: لماذا يفعل ذلك؟ إنه يعطي مقابلاً للحسنة سبعمائة ضِعْف بغير حساب، إن الحساب إنما يأتي عندما تأخذ معدوداً، فإذا أخذتَ مثلاً مائة من ألف فأتت طرحتَ معدوداً من معدود، فلا بُدَّ أن ينقص، وعندما تراه ينقص فأنت تخاف من العطاء، لكن اللَّه بخلاف ذلك، إنه يعطي معدوداً من غير معدود.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً حَياً على رزقه الواسع الذي لا تحدُّه حدود في قصة مريم وزكريا عليهما السلام، فيقول تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فزكريا عليه السلام كان يكفل مريم، ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها، وسألها وهي القديسة العابدة الملازمة لمحرابها.

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا هذه الصورة، مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات، ولكن لنعرف أن الذي يفسد الكون هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التي تتناسب مع قدرات مَنْ يحصل عليها.

الأم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مُرتبه، وترى الابنة ترتدي ما هو أكبر كثيراً من مرتبها أو مصروفها.. ولو سألت الأم الأب أو الابنة: من أين لك هذا لما فسد المجتمع، ولكن الفساد يأتي من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام.

بماذا رَدَّت مريم عليها السلام؟

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

إذن: فطلاقة قدرة اللَّه لا يحكمها قانون.. والحق سبحانه غير محكوم بالأسباب، وسبحانه يعطي بلا حساب، فالسيدة مريم أجابت الإجابة الإيمانية، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام: أنت تتكلم بحسابك؛ ولكنِّي أتكلم بحساب اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة في الكون.

وشاءتْ إرادة اللَّه أن تنطق مريم بهذه المقولة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، لأنها ستنبه زكريا إلى شيء، وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد، حينما تشعر بالحمل من غير زوج، فلن تعترض على هذا الوضع، وستعلم أنه عطاء من اللَّه.

وكذلك نبهتْ هذه الآية زكريا عليه السلام إلى فَضْل اللَّه وسِعَة رحمته، وهذا أمر لا يغيب عن نبي اللَّه، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ...﴾ [آل عمران: ٣٨]. فما دام أن اللَّه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، فلماذا لا أدعو اللَّه بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي، وطالما أن الرزق بغير حساب، فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه.

فجاءتْه البُشْرى واستجيب دعاؤه، قال تعالى:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا(١) وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

(١) الحصور: الذي يمنع نفسه من الشهوات. (القاموس القويم ١/ ١٥٧).